Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع هذا نعود فنقول إنه لم يجعل اللفظ شغلا شاغلا فى صناعته ، ولم يحفل به إلا لأداء المعنى الذى يريده ، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يبد على معناه أثر الجهد فيه ، وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظى والمحسنات المموهة ، مع أنه نشأ فى العصر الذى نشأت فيه هذه المحسنات ، وعجيب هذا منه وهو المتطير الذى كان يلقى باله إلى أقل تجانس فى الكلمات وأضعف تشابه فى الحروف ليستخرج منه النذر والبشائر ويعلق عليه القنوط والأمل ، ولكنه عجيب فى الظاهر دون الحقيقة ، لأنه إنما كان يبالى بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المتطيرين ، وهى حينئذ لها معنى عنده ومن ورائها نبأ وفيها شعور ، فليست هى خواء ولا تمويهاً ولا بهرجاً زائفاً كبهرج العابثين والمزوقين ، إنما كان يجانس لمعنى يراه هو ويراه من يتطير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخيف ، فإذا لم يكن متطيراً فلا جناس ولا اكتراث باللفظ إلا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم وما له من فصاحة ونضارة ، أو يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلى والشاعر المخضرم فى عهد التنميق والصناعة ، فلا غرابة فى أن نجد له أو لشاعر مخضرم مثل هذا البيت :

فيَسْبيكَ بالسحر الذى فى جُفونه ... ويُصبيكَ بالسِّحر الذى هو نافثه(٢٥)

أو مثل هذا البيت :

تُصيب إذا حكمتَ وإنْ طلبنا ... لديك العُرفَ كنت حَياً تَصُوبُ(٢٦)

أو مثل هذا البيت :

ليس ينفك طيرُها فى اصطحاب ... تحت أظلالِ أيكها واصطخاب(٢٧)

وهكذا كان فى كل تجنيسه الذى لا تعسف فيه ، وليس هو بالكثير البارز فى ديوانه الكبير ، فإذا جنس فى غير ذلك فهو عابث متعمد للعبث ، وليس بملفق محسنات ، ولا بطالب تزويق ، كما قال :

لو تلفَّفتَ فى كساءِ الكسائِى ... وتلبست فروة الفرَّاءِ
وتَخلَّلتَ بالخليل وأضحى ... سيبويهِ لديك رَهْنَ سِباءِ

(٢٥) ديوان ابن الرومى ١ : ٤٠٤ .
(٢٦) المصدر نفسه ١ : ١٨٩ .
(٢٧) المصدر نفسه ١ : ٢٨٥ .